

الفصل الثاني

كل صباح كانت الشمس تشرق فوق نهر دجلة، مزينة شرفتي الفندقية ببقع ناصعة من اللون البرتقالي وعارضة مشاهد بطاقات بريدية من ريش الدخان الأسود المتصاعد من الهجمات الصاروخية على المنطقة الخضراء. كثيراً ما استيقظت على هدير المدافع الأمريكية القاصفة لشارع حيفا، تلك المسافة القذرة الممتدة ميلين من المباني البرجية الخاضعة لسيطرة عصابات المتمردين. في الشارع تحت الشرفة، كان العراقيون العاملون في الشيراتون وفندق فلسطين المجاور يهرعون على الأرصفة الإسمنتية، خلف الأسلاك الشائكة والجدران الخرسانية الهادفة إلى وقايتنا جميعاً من الخطر.

مثل عدد كبير من وكالات الأنباء الأجنبية الكبيرة الأخرى، كانت البوست قد استأجرت بيتاً بعد سقوط بغداد حين تبين أننا سنكون بحاجة إلى قاعدة أكثر دواماً لفترة زمنية غير محدودة. كان البيت الواقع في حي الجادرية مسكناً لطيفاً فيه بركة كبيرة وحديقة، محمياً بأسوار من أكياس الرمل، بنوافذ مصفحة وحراس مسلحين. أوائل شباط/فبراير 2004، انفجرت سيارة مفخخة خارج منزل أحد مترجمي البوست. في اليوم نفسه، مرت سيارة مسرعة ببيت البوست فيما كان أحدهم يلتقط صوراً. في غضون ساعات قام راجيف بإعادة

المكتب كله إلى فندق الشيراتون بحي الكرادة البغدادي، ذلك الحي التجاري المأهول بسكان من الطبقة الوسطى. كان الشيراتون الجديد قد فقد انتماءه التعاوني الرسمي وإن بقي متمسكاً باسمه الأصلي. لم يكن هذا أكثر من نزل متواضع، رغم أنه كان في وقت من الأوقات أحد أبداع وأفخم الفنادق في بغداد. وقد كان كذلك المبنى الأعلى في المدينة بطبقاته التسع عشرة مما جعله هدفاً مثالياً لثيران المتمردين.

كانت البوست قد شغلت جزءاً من طبقة فيه غرف إفرادية للمراسلين، مكتب للمترجمين، مطبخ معدل، غرفة لسائقينا يرتاحون فيها بين المهمات، وغرفة طعام/بهو للمراسلين أعطيناها رقم غرفتها: 107 عنواناً. كانت الغرف بائسة، والأثاث العتيق غير الملائم باهتاً وقذراً، غير أنني لم أبال. إحدى أصغر الغرف كانت من نصيبي عند وصولي الأول. كانت الغرفة مجهزة بسرير موبوء بالبِق والبراغيث ومفتقرة إلى جهاز التكييف.

على الجدار الملطخ بدم مجهول الأصل علقت علماً عراقياً يذكرني بأنني زائرة، إحدى الضيوف، في هذا البلد المحتل. ثمة كانت وفرة من الإشارات الدالة على الهيمنة الأمريكية في الأمكنة الأخرى. بدا متعاقدو القطاع الخاص، وخصوصاً المتعاقدون الأمنيون، أقل الناس حساسية إزاء هذا الأمر. ليس هذا حكماً شاملاً بلا استثناءات، غير أنني كنت على الدوام أثور غضباً لدى رؤية أجنبى يحتقرون العراقيين ويتصرفون كما لو كان البلد ملكاً لهم. حتى زملائي وأصدقائي العراقيين الذين كانوا يقرون بفضل الغزو الأمريكي كانوا يثورون حين يبالغ هذا الأجنبي المتعطرس أو ذاك في رفع صوته.

كان الشيراتون وفلسطين ميداني صراخ نموذجيين. فالفندقان اللذان كانا يعجان بالأجانب يتقاسمان عقارات شارع أبي نواس، أحد أشهر وأكثر العناوين البغدادية جاذبية وإثارة للغيرة. أيام عز المكان في ستينيات وسبعينيات القرن

الماضي كان الشارع العريض المجاري لنهري دجلة مزناً بالأندية الليلية، بمطاعم السمك، وبشريط من المرج الأخضر المنعش. درجت العائلات على التنزه على المرج، وكان الأطفال يلهون بالمزلق صعوداً وهبوطاً في ملعب خاص.

غير أن المنطقة ما لبثت أن باتت مغلقة في وجه الجمهور أواخر الثمانينيات مع تزايد خوف صدام حسين المرضى من الأخطار المهددة لحياته ولحكومته. يقع أبو نواس وفيه فندقا شيراتون وفلسطين في الطرف المقابل مباشرةً للمجمع الرئاسي السابق، المعروف الآن باسم المنطقة الخضراء.

قام الجيش الأمريكي بإغلاق الشارع لحماية الصحفيين والمتعاقدين الأجانب المقيمين في الفندقين بعد شروع انتحاري السيارات المفخخة في ضرب أهداف "سهلة" "طرية" - غير عسكرية. في أحد أبشع الحوادث وأكثرها ضحايا انفجرت سيارة مفخخة في التاسع عشر من آب/أغسطس 2003، أمام فندق القناة البغدادي الذي كان يؤوي مكاتب الأمم المتحدة. كبير مبعوثي الأمم المتحدة، سيرجيو فييرا قُتل في حادث التفجير. في مجمع الشيراتون - فلسطين أقامت الشرطة العراقية ووحدات المتعاقدين الأمنيين حواجز إسمنتية قوية ونقاط تفتيش دقيقة عند الجزء المغلق من الشارع، ولم يكن يسمح بالمرور إلا للسائقين المزودين بشارات محلية صادرة عن أرباب العمل. بعد المرور كانت العربات تُقاد إلى موقف ترابي على مسافة ربع ميل من الفندقين للحيلولة دون تمكين سائقي السيارات المفخخة من الوصول إلى المداخل. وبعد النزول إلى الأرض كان يتعين على المرء أن يمر عبر نقطة تفتيش أمنية إضافية حيث كان صف للنساء وآخر للرجال. وبعد تفتيش دقيق يكاد أن يكون نفضاً كاملاً، هو من تراث عراق ما بعد الحرب، كان المرء يمشي الجزء الباقي من الطريق بين صفين من الحواجز الخرسانية العملاقة المشادة على امتداد الشارع.

كان فلسطين (الفندق) ينعم بمشهد اجتماعي أنشط مقارنةً بالشيراتون، لأن

السي. إن. إن. والأسوشيتد برس كانا يعسكران فيه إلى أن رحلا، كلاهما، في خريف 2004. أما نحن فكنا نتقاسم فضاء الشيراتون مع كل من الفوكس نيوز، المتعاقدين الأجانب، وفصيل متناوب متبدل من الجنود الأمريكيين الذين كانوا يحرسوننا من مواقع على السطح. حين كان الصحفيون لا يزالون يستطيعون السفر بعد حلول الظلام لتلبية دعوات اجتماعية. وهي ممارسة توقفت أوائل تشرين الأول/أكتوبر مع اشتداد خطر الاختطاف. كان الأسوشيتد برس يستطيع جمع حشد مؤلف من بضع مئات من المراسلين بدعوتهم من مختلف أطراف المدينة إلى احتساء علب بييرة الكارلزبيرغ المعدنية وسماع الألحان الموسيقية العتيقة العائدة إلى ثمانينيات القرن الماضي في باحة محاطة بأشجار النخيل. كان المرء يوشك أن ينسى أنه في العراق لدى استغراقه في أجواء واحدة من تلك الحفلات. كثيراً ما كان الجنود الأمريكيون هناك يحدثونني عن الرتبة الحمراء لواجب الحراسة، عن الساعات الطويلة المبددة على التمارين المكرورة، على تنظيف الأسلحة، على الانتظار. ما أكثر ما ينتظر الجنود! لديهم ساعات خدمة وساعات خارج الخدمة. أما نحن فعندنا ساعات ببساطة، ساعات دون توصيف. إذا لم تكن عاكفاً على الكتابة فأنت مشغول بمطاردة قصة جديدة بأن تكتبها. لم يكن ذلك يترك لك كثيراً من أوقات الفراغ.

الفندقان، كلاهما، كانا يشغلا مطعمين غير أن وكالات الأنباء الأكبر كانت تتدبر شؤون الطعام ذاتياً. ففي مكتب البوست عشنا، رغماً عنا أحياناً، على الطعام الدسم المعد من قبل امرأتين عراقيتين كانتا تتناوبان إعداد وجبة الغداء وطواقم من النوادل الذكور الذين كانوا يتناوبون وضع وجبات العشاء على موائدنا كل ليلة. نموذجياً كانت وجبات الغداء مؤلفة من اللحم المطبوخ، الأرز، والسلطة. أما وجبات العشاء فكانت قضية مطبخية أكثر تعقيداً فيها القرنيط بالكاراي، الفروج المشوي، المخللات، الحمص، والخبز. كنا ندفع لاثنتين من عمال التنظيف في الشيراتون، مشتاق ووعد، مبلغ مئة دولار في الشهر لجعلهما يضاعفان من

اهتمامهما بنظافة غرفنا، بمعنى أن يقوموا فعلاً بتنظيفها. في الحقيقة كنا ندفع لهما لمنعهما من سرقة حوائجنا، حتى حين كانا يأتيان لنفض الغبار، كان حارس مسلح أو سائق من مستخدمي البوست يرافقهما للمراقبة. كانت وكالات الأنباء الأجنبية تشكل أهدافاً مثالية لعمليات السرقة الصغيرة. من وجهة نظر اللصوص كنا من أمريكا العملاقة. كانت عندنا أشياء دسمة - علب الصودا، زجاجات الخمر، المواد الغذائية - لا تلبث أن تختفي جراء السرقة مع مرور الوقت.

شكلت أساييبي القليلة الأولى في العراق دوامة تكيف. كل شيء كان غريباً بالنسبة إلي: اللغة، العادات، نمط حياة مراسلة أجنبية. وحدة العمل بدا مألوفاً. فالقصة هي القصة بصرف النظر عن المكان الذي تطلقها منه. قبل مغادرتي لواشنطن كان محرر الشؤون الخارجية في البوست ديفيد هوفمان، الذي ما لبث أن ارتقى إلى منصب مساعد مدير تحرير القسم لاحقاً، قد استدعاني إلى مكتبه. كنت أشعر بقدر كبير من الرهبة إزاء ديفيد في ذلك الوقت. قد يكون قاسياً، إنه مراسل مخضرم كان قد غطى فترات رئاسة ريغان وبوش الأب، ثم ذهب إلى القدس وموسكو فيما وراء البحار. بدا متشككاً من قدراتي. عملي السابق في البوست مر بمعظمه دون أن يلفت الأنظار. كنت في المراتب الدنيا على قائمة محرر شؤون خارجية درج على إدارة بعض أفضل المراسلين وأغناهم خبرة في الصحيفة. كنت واثقة من امتلاكي للقدرة على تحقيق إنجازات كثيرة في العراق ولمصلحة ديفيد، لا غيره، بالتحديد. كنت عازمة على اكتساب احترامه وسجلت سيلاً من الملاحظات لدى قيامه بتقديم درس مكثف في فن المراسلة الخارجية تضمن أحد أفضل النصائح التي كنت أستطيع اصطحابها خلال فترة عملي في العراق: "فليبق دفتر ملاحظاتك مفتوحاً!" أي مراسل خارجي يرى أجزاء من العالم غير قابلة للتصور أو الوصول بالنسبة إلى أكثرية الناس. نصيحة فليبق دفتر ملاحظاتك مفتوحاً كانت تعني أن أجعل من وظيفتي

نافذة قرائنا غير القادرين على أن يكونوا هناك ليعيشوا القصة. فيما بعد تعين علي أن أتنازل عن تلك الوظيفة لمترجميننا العراقيين، جراء ضرورة فرضتها علينا البيئة المثقلة بالخطر. "أرجو أن تبقوا دفاتر ملاحظتكم مفتوحة - من أجلي!"

خلافاً لحال المهمات الخارجية الأخرى، كانت هذه شحيحة الامتيازات. لم أحصل على أي زيادة في الراتب لقاء سفري إلى العراق، ما من أحد ينخرط في الصحافة من أجل المال. حين يتم إرسال بعضهم لشغل مناصب دائمة فيما وراء البحار (ودائمة، بلغة البوست، تعني عادة ثلاث إلى أربع سنوات في مكان واحد)، فإنهم يصطحبون أجزاء من حيواتهم، بما فيها الأسر، الحيوانات المدللة، وقطع الأثاث. أما في العراق فعليك أن تذهب وحدك، فيغدو المكتب حياتك، بل وحتى سجنك، كما درجنا على تسميته بعد انحصارنا فيه أياماً متتالية، عاجزين عن المغادرة بسبب المخاطر الأمنية.

جل زملائي الذين تم إرسالهم إلى العراق من واشنطن خضعوا لدورات نجاة وفرها الجيش الأمريكي أو إحدى الشركات الأمنية الخاصة. في بيئات شبيهة بأجواء الثكنات العسكرية يتعلم الصحفيون كيف يتدبرون أمورهم في أي أزمة رهائن وكيف يميزون بين النيران العسكرية المختلفة. أما أنا فلم يسبق لي أن مررت بمثل هذه الدورة التدريبية لأن إرسالي في المرتين تم على عجل. بدلاً من التدريب قابلت توم ريكس كبير مراسلي البوست لدى البنتاغون، رجل عريض المنكبين، كثيف الشعر الأبيض. سمعة توم عند أبناء الجيل الأكثر شباباً كانت تقول إن بوسع المرء أن يلوذ به إذا لم يكن يعرف ما يقوم به من عمل ولا يريد أن يكتشف رئيس تحريره ذلك. درج الرجل على توزيع النصائح دون أحكام وعلى الكشف عن موارد معلوماته الهائلة. وجهني توم الذي كان قد قام بعدد من الرحلات إلى العراق منذ الغزو إلى مكتب في البوست للتزود بلوازم المعركة: خوذة سوداء وسترة مضادة للرصاص. أعطاني قائمة الأشياء التي كان قد أعدها

تذكيراً للمراسلين المرافقين في أثناء الحرب، ونصحتني بشراء نظارة تزلج لحماية عيني من العواصف الرملية.

على الطريق إلى المصعد، مع عدة المعركة المدسوسة في كيس من النايلون الأسود الذي أكد لي توم بأنه كان سيصادر في العاصمة الأردنية عمان بحجة أنه يحتوي على تجهيزات إرهابية، صادفت دون غراهام، ناشر سابق للواشنطن بوست ورئيس حالي لمجلس إدارة البوست. كان دون قد سمع بأنني كنت موشكة على التوجه إلى العراق. لفني بذراعه واقتادني إلى فسحة صغيرة فيها عدد من الكراسي وطاولة بالقرب مصفة مصعد غرفة أخبار الطبقة الخامسة. كلمني كأب لا كوارث كنز صحفي، لا كعراب البوست. كان لطيفاً ومطمئناً، وكان واضحاً: "ليس ثمة أي قصة تساوي حياتك." أوصاني بلطف بأن أبقى سالمة وأعود دونما خدش. في أثناء الصعود انقض على يدي، انحنى، قبلها. "كوني حريصة!" قال قبل أن يبتعد.

لم تكن لدي أي فكرة عن المدة التي كنت سأقضيها في العراق. توقعت أن تدوم الرحلة أسبوعين فأعود بعدهما لأرى ما إذا كان رؤساء التحرير راغبين في تمكيني من مواصلة القصة أم قرروا إحالتها على شخص أكثر خبرة. صحيح أنني نبهت أفراد أسرتي إلى احتمال غيابي مدة شهرين، إلا أنني، واقعياً، كنت أظن أن الفترة ستكون أقصر بكثير. كنت شديدة التمسك بالقصة، متعلقة بخيط مسؤولية رفيع لتغطية المحاكمة العسكرية للمتطوع السابق في الجيش جيرمي سي. سيفيتس، العسكري الأول المحاكم بتهمة إساءة معاملة معتقلين في أبو غريب. كان هوفمان قد أوصاني بالبقاء متركزة على أبو غريب دون الانجرار إلى قصص أخرى في العراق ما لم يطلب راجيف مساعدتي على نحو استثنائي. كان هوفمان قد عبر عن جملة تحفظات إزاء إرسال مراسلة عديمة الخبرة إلى العراق. نصحتني بالألا أفتحم المكتب وأغرقها بوابل من القصص مثيرة زحمة من المشكلات مع المراسلين الآخرين. لعل الطريقة الفضلى كي أكون ناجحة هي

حصر اهتمامي بقصتي الخاصة كما نصحني. واثقة مئة بالمئة من أن رحلتي لن تكون إلا ذهاباً وإياباً سريعين، تركت كميات من الطعام في البراد متصورة أنها لن تفسد خلال فترة غيابي القصيرة. ودعت جدتيّ المسنتين عبر الهاتف واعدة إياهما بأنني سأزورهما فور عودتي القريبة. لو علمت أن رحلتي ستمتد أشهراً، لبادرت إلى التخلص من تلك الكتلة الشبيهة بالطوب من جبة الشيدر، لو خطر ببالي أن إحدى جدتي ستموت بعد ستة أسابيع من سفري، لكنت قد ودعتها شخصياً.

كنت على علم بمدى الرعب الذي أصاب جني. في مطار نيويورك الدولي ليلة مغادرتي إلى عمان، في الطريق إلى بغداد، أطلت النظر إليها قدر ما استطعت، قبل الاختفاء في أورقة المغادرين. استطعت أن أقرأ الرعب والفرع الواضحين على وجهها؛ تمددت شفاتها راسمتين ابتسامة محكمة كانت تقول: أحاول أن أكون سعيدة من أجلك، ألا ترين؟ أدركت أنها كانت تحفظ اللحظة عن ظهر قلب، تحفظني عن ظهر قلب؛ كانت تنقش صورتي على صفحة ذاكرتها. ما إن أصبحت داخل قاعة المسافرين حتى توقفت عن النظر إلى الخلف.

يتقاسم العراق حدوده مع ست دول: الكويت والسعودية في الجنوب، الأردن وسورية في الغرب، تركيا في الشمال وإيران في الشرق. العراق يشبه كنساس الشرق الأوسط. يتعين على المرء أن يطير أو ينتقل بالسيارة قاطعاً مسافة تبدو لا نهائية كي يصل إليه.

بعد سقوط بغداد بيد قوات أمريكا والتحالف في التاسع من نيسان/أبريل 2003، تدفق سيل من الصحفيين على البلاد، قادمين، بأكثرتهم، من الأردن والكويت. في الأشهر التي أعقبت ذلك كنا لا نزال نستطيع الذهاب براً إلى عمق العراق، وعدد كبير من زملائي فعلوا ذلك تحديداً، قاطعين مسافة 600 ميل ترابي في رحلة غبارية بالسيارة من الأردن. مع حلول شهر أيار/مايو، عندما

عدت دون مرافقة الجيش، كان قد بات السفر براً يُعد خطراً. فالطريق السريعة الممتدة من الحدود الأردنية إلى بغداد تمر بالفلوجة وقرية أبو غريب - مكانين لا بد لك من أن تصلي داعياً ألا تصاب سيارتك بأي عطل فيهما فتضطر للتوقف ولو لتغيير الدولاب. في الحقيقة كانت جماعات قطاع الطرق والمتمردين ترصد الطرق السريعة، بل وتقيم عليها أحياناً حواجز غير شرعية بحثاً عن أناس يسلبونهم ما بحوزتهم أو عن أجانب لأخذهم رهائن. سافرت جواً من عمان إلى بغداد على متن إحدى طائرات الخطوط الجوية الملكية الأردنية، شركة النقل التجارية الوحيدة العاملة بين العاصمتين في أيار/مايو 2004 . مطار الملكة عالية الدولي القريب جداً من عمان مظلّم ورث - ليس مكاناً يطيب للمرء فيه أن يتساءل عما إذا كان هذا هو الجزء الأخير من الأرض الذي ستلامسه قدماه قبل التعرض للتفجير في المساء. الركاب المسافرون إلى بغداد يحشرون في زاوية انتظار صغيرة محاطة بجدران زجاجية، حيث المزاج يبدو أقرب إلى التصميم منه إلى الاستسلام للأقدار. لم يكن ثمة أي عودة إلى الخلف. قُضي الأمر. ما الذي كنا نفعله بحق الجحيم؟ كانت زاوية الانتظار مكاناً مناسباً لتقدير هويات الحمقى الآخرين الذين قرروا التطوع للعمل في العراق. كان تمييز المتعاقدين بالغ السهولة. كانوا عادة ملتحين، يرتدون سراويل الجينز وينتعلون أحذية رياضية ويتكبنون حقائب كتانية من طراز إيدي باور. كان في الحشد رجال أعمال عراقيون في بذات داكنة ومتعاقدي أمن مدنيين بدنيين تميزهم عضلاتهم المفتولة البارزة عن المتعاقدين الآخرين الذين جاؤوا لقيادة الشاحنات والإشراف على عمليات إصلاح البنى التحتية. بعد نصف دزينة من رحلات الذهاب والإياب، أتقنت فن تمييز الصحفيين عن غيرهم: كلنا مجهزون بمسجلات آي بود (i Pod) الإلكترونية.

لدى وصولي جواً إلى عمان قبل يوم، لفتت نظري طائرات الملكية الأردنية النفاثة الرشيقة المطلية حديثاً مصفوفة على المدرج. تنفست الصعداء. كنت قد

تصورت نفسي محلقة فوق بغداد في طائرة رش مبيدات أفريقية. قبل نحو خمس دقائق من موعد إقلاع رحلتنا مشى رتل الركاب القادمين من بغداد خلف الزجاج وحاول كل منا أن يروى الآخر. أحياناً يصادف المرء شخصاً يعرفه، وُعداً محظوظاً خرج من الجحيم سالماً، فيبادر إلى التلويح ورسم إشارة النصر التي لم تكن في الحقيقة تخص غيره هو نفسه، كما لو كان يقول: "سأكون على ما يرام! أنا الآخر سأخرج من الجحيم سالماً!" بعد بضع دقائق فتح أحد موظفي المطار باباً يفضي إلى سلم متحرك. لم يقل شيئاً. لم نقل شيئاً، تبعناه إلى الحافلة المنتظرة. مرت الحافلة بالنفاثات الملكية الأردنية الرشيقة حديثة الطلاء، بطائرة الخطوط الجوية العراقية التي كانت قد بقيت رابضة على الأرض لفترة زادت على عقد كامل خلال مدة العقوبات الدولية. ما لبثت حافلتنا أن تدرجت لتصل إلى طائرة شوهاء داكنة اللون ذات مئة مقعد من طراز فوكر إف - 28. شعرت بغصة.

الطاقم الجنوب أفريقي المرافق للطائرة التي استأجرتها الملكية الأردنية من خدمات النقل الجوي المعروفة باسم إيركواريوس، رحب بنا على متن الطائرة في بدلات زرقاء داكنة. كانت نصف مقاعد الطائرة فارغة حين أقلعنا لقطع مسافة الساعة وعشرين دقيقة إلى قلب بغداد. الرحلة الجوية نفسها كانت على ما يرام... أما الهبوط فقد كان شديد الإزعاج.

على ارتفاع نحو 4500 قدم، بدأ الطيار هبوطاً بطيئاً، قابلاً للمعدة، في مناورة تكتيكية تجنباً للنيران، للصواريخ، أو لأي شيء آخر كان يمكن للمتمردين أن يطلقوه في ذلك اليوم. في 22 تشرين الثاني/نوفمبر 2003 كانت طائرة بريد سريع (DHL) قد ضُربت بصاروخ أرض - جو وهي تقلع من مطار بغداد الدولي. نجح الطيار في الهبوط بالطائرة المعطوبة سالماً. وفي 10 كانون الأول/ديسمبر أصاب صاروخ أرض - جو آخر طائرة شحن أمريكية من طراز سي. 170 تابعة لسلاح الجو. مرةً أخرى هبط الطيار سالماً. كانت مناورة الهبوط

الحلزوني تُعد عامل تقليص لاحتمالات تعرضنا للضرب. التصقت بالمقعد ونظرت إلى الركاب الآخرين. جميعاً كانوا ملتصقين بمقاعدهم. أذناي كانتا تقفزان ومعدتي كانت تخفق ونحن نكمل دوراتنا الحلزونية الواسعة وصولاً إلى الأرض.

في رحلتي الأولى إلى بغداد، جئت جواً من الكويت على متن طائرة سي - 130 عسكرية. سافرت برفقة الفريق روبرت فلورز، قائد سلاح المشاة، الذي تقاعد بعد ذلك، مفضلاً وظيفة في القطاع الخاص على العمل في الجيش. دعاني فلورز إلى مرافقته إلى قمرة القيادة. كنت متلهفة لرواية المشهد وهو يتكشف تحت البطن العملاق لطائرة الشحن. كنت قابضة في الهيكل الكهفي، مربوطة في مقعد أحمر مشبك، في مؤخرة الطائرة مع أركان الفريق. كان ضابط شؤون عامة مدني يدعى سكوت ساوندرز هو من أقنع فلورز بأن أكون المراسلة الوحيدة المسموح لها بالذهاب إلى قمرة القيادة. ساوندرز وأنا كنا قد عملنا معاً أشهراً للكتابة عن عمليات إعادة البناء في العراق، وكنت قد أصبحت واثقة بأسلوبه الذي لم يكن هراء. أما هو فكان يقدر التماسي للإنصاف. ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه حين جاء أحد أفراد طاقم الحرس القومي ليبلغني برغبة الجنرال في انتقالي إلى المقدمة عند التوغل في العراق. كانت ابتسامة تقول: أنت أيتها الكلبة صاحبة الحظ السعيد، مفيد بالنسبة إليك! لوحتُ له مودعة وقفزت متسلقة السلم المفضي إلى قمرة القيادة. ربت فلورز على المقعد الذي بجانبه، وسارعت إلى تكبير نفسي فيه.

للمرة الأولى تراءت لي بغداد عبر نافذة قمرة القيادة على شكل مشهد مائل مليء بالزخارف، مشهد دائم على التكشف تحتي وأنا أجهد لرؤيته. كان الصخب يحول دون الكلام فخريشت سؤالاً على مندبل ورقي: "هل ينجح المتمردون في إلحاق الأذى بهذه الطائرات الكبيرة؟" قدمت المندبل إلى فلورز. حدق في الورقة،

ثم التفت إلي وراح يخض رأسه صعوداً وهبوطاً. ثم تفوه بكلمة "نعم". عدت إلى النظر عبر النافذة، وأخذت أراقب جروف الرمل البنية التي كانت رياح كانون الثاني/يناير قد ثبتتها بتحويلها إلى أنهار جليد صحراوية، في قداس جنائزي جغرافي خالد ظل يتكرر عبر القرون.

تذكرت المشهد ذاته من مقعدي في الطائرة الملكية الأردنية. شهقت ونحن ننحدر، وحدنا، هابطين دون أي حادث. تساءلت عما إذا كانت تعابير وجهي شبيهة بتعابير وجوه الركاب الآخرين: لم يراودني الخوف. انظروا، كانت المسألة بسيطة. فتة خبز، لقد نجحنا، بالطبع.

قبل قيام الأمريكيين بإعادة السلطة المدنية للبلاد إلى العراق في حزيران/يونيو 2004، كان رسميون أمريكيون يتولون الجزء الأكبر من التحكم بالدخول في المطار. أبرزت رسالة صادرة عن السفارة الأمريكية في الأردن، ووقفت بشيء من الغطرسة أنتظر مهر جواز سفري بختم مطار بغداد الذي حمل أحرف سين. تاء. ميم. (سلطة التحالف المؤقتة)، حكومة الاحتلال الأمريكية. أخذت حقائبي وتوجهت إلى الحاجز. أمن المطار كان شاملاً. سيارات الأجرة كانت ممنوعة من الدخول. لا عربات خاصة باستثناء تلك المزودة بتصاريح خاصة صادرة عن وزارة الدفاع. التحقت بركب من لا علاقة لهم بوزارة الدفاع وركبت معهم حافلة حارة نقلتنا إلى نقطة التفتيش رقم: 1، موقف سيارات قذر التفتيش فيه كلاً من مهند وعمر الثاني، أحد سائقينا. أعطينا العمرين والناصرين العاملين عندنا أرقاماً وفقاً لتاريخ بدئهم العمل في المكتب. فعمر الثاني جاء بعد عمر الذي كان عمر الأول فنياً رغم أننا كنا نكتفي بمناداته بعمر دون رقم.

بعد وصولي إلى العراق لم يكن أمامي سوى بضعة أيام لحجز مقعد لي في جلسة المحكمة العسكرية الأولى وللحصول على أوراق الاعتماد الصحفية التي تخولني دخول المنطقة الخضراء. لم يكن الجيش الأمريكي في العراق متوفراً

على قاعة محكمة كبيرة يمكنها أن تتسع لهذا الحشد الذي زاد تعداده على المئة من الصحفيين الذين جاؤوا لتغطية محاكمة جيرمي سيفيتس العسكرية. عُقدت جلسة المحاكمة بدلاً من ذلك في قاعة محاضرات كئيبة ذات سجاجيد بنية كائنة في مركز اجتماعات كئيب بالمثل وبني اللون في المنطقة الخضراء.

كان صدام قد درج على استخدام مركز الاجتماعات مسرحاً لإعلان نبأ كونه الفائز في الانتخابات العراقية التي لم تكن تعرف معنى المنافسة. ففي تشرين الأول/أكتوبر 2002، عقد صدام استفتاء تضمن سؤالاً وحيداً متعلقاً ببقاء القائد في السلطة. كان من حق المقترعين أن يختاروا بين "نعم" و"لا". أقبل جميع العراقيين الذين يحق لهم الاقتراع وقد بلغ عددهم 11.4 مليوناً، دون استثناء واحد، على التصويت بـ "نعم" لـ "إعادة انتخاب" صدام لفترة سبع سنوات أخرى.

مركز الاجتماعات هو المكان الوحيد في المنطقة الخضراء الذي يُسمح فيه للصحفيين بالتحرك دون مرافقة. وبوصفنا أعضاء في سلك الإعلام لم نكن نستطيع زيارة السفارة الأمريكية في المنطقة الخضراء دون الحصول على إذن خاص. لم نكن نستطيع أن نرافق المتعاقدين إلى مطعم اللون ستار (لا مطعم الخدمة الذاتية الأمريكي). لم نكن نستطيع دخول المستشفى العسكري الأمريكي ما لم نأت خلال ساعات الدوام الرسمي، ما لم نحصل على تصريح مسبق، أو ما لم نكن نعاني من إصابة تهدد حياتنا.

تمثل الرعب الأكبر لدى الغربيين العاملين في المنطقة الخضراء باحتمال تسلل المتمردين. كان ذلك رعباً حقيقياً. ففي تشرين الأول/أكتوبر 2004، أقدم انتحاريان على تفجير نفسيهما في مقهى المنطقة الخضراء المتمتع بشعبية واسعة وفي سوق مجاورة، قاتلين خمسة أشخاص - ثلاثة منهم أمريكيون من العاملين

لدى شركة دين كورب المتعاقدة مع وزارة الدفاع. متفجرة معدة منزلياً وُجِدت قبل نحو تسعة أيام خارج المقهى نفسه ولكنها اكتُشفت قبل أن تتفجر.

مع مرور الوقت، بات الصحفيون أقل حاجة للذهاب إلى المنطقة الخضراء. فالمؤتمرات الصحفية المسائية التي كان البريغاديير جنرال مارك كيميت ودان سنور، أحد كبار مستشاري سلطة التحالف المؤقتة، يعقدانها توقفت بعد حل هذه السلطة في الثلاثين من حزيران/يونيو 2004، وقام الرسميون الأمريكيون بإعادة حكم البلاد إلى حكومة عراقية انتقالية. درج الصحفيون على الإشارة إلى المؤتمرات الصحفية تهكماً بوصفها "حماقات الساعة الخامسة." كانت المؤتمرات الصحفية تقدم إحصاءات تفصيلية موجزة أشبه بالبرقيات، هادفة بأكثريتها إلى جعل العالم يرى أن العراق كان يصبح آمناً وأفضل حالاً. دأب كيميت وسنور في غرفة المؤتمرات الثالثة على تقديم صورة للواقع لم تكن متطابقة مع كنا نراه نحن خارج الفقاعة.

كانت قاعة الاجتماعات أحد الأمكنة التي مكنت الصحفيين الأمريكيين والعراقيين من الاختلاط، على الرغم من أننا بقينا منفصلين مثل الطلاب في ندوة المدرسة الثانوية. كان من الممكن إرجاع جزء كبير من السبب إلى حواجز اللغة. إلا أن الصحافة الأجنبية لم تكن دائمة النجاح في التعامل مع الصحفيين العراقيين بوصفهم زملاء. الإعلاميون العراقيون لم يكونوا مصقولين، كما لم يكونوا يتقنون قواعد التعامل. بدلاً من الأسئلة، درجوا على إلقاء البيانات، الانتقادات النظرية المطولة. غير أننا كنا، بمعنى من المعاني، شهوداً على ميلاد صحافة حرة، وقد أسرني سحر ذلك. رحت أتحرش بالصحفيين العراقيين واستثيرهم بأسئلة استفزازية عن مهنتهم. ما الذي كانوا يفعلونه قبل الحرب وبعدها. دعوتهم إلى تناول العشاء في مكتبنا. شعرت بنوع من مسؤولية سفير تجاه الصحفيين العراقيين. أما الجيش الأمريكي فقد بدا على الدوام شديد

الارتياح منهم، ولبعض الأسباب الوجيهة. ففي العراق، يتعذر عليك أن تتعرف على أعدائك. ما من أحد إلا ويستطيع، على ما يبدو، أن يعلن أنه صحفي.

حين كنت واقفة في الرتل للحصول على بطاقتي الصحفية، كان ثمة رجل عرف على نفسه أنه معلق يسعى أيضاً إلى الحصول على بطاقته. لم يكن، في الحقيقة، إلا محامياً أراد أن يكتب عن قضايا قانونية ولكنه لم يعمل لدى نشرة محددة. أكثر من مئتي صحيفة انبثقت في بغداد بعد سقوط صدام. فالقائد المطاح به كان يحكم السيطرة على الصحافة والمراسلون الذين كانوا يخرجون على الخط كانوا في الغالب يتعرضون للضرب.

كانت الحرب في العراق والحريات الصحفية الجديدة التي جاءت نتيجة لها قد أوجدت عصابة آنية من الصحفيين العراقيين الجدد. بالنسبة إلى كثيرين، كانت محاكمة سيفيتس العسكرية فرصتهم الأولى لتغطية جلسات محكمة علنية، وإن بقيت بعيدة عن متناول الجمهور العام. فقط ثلاثون صحفياً كانوا محظوظين إذ حصلوا على أمكنة في الصفين الخلفيين في قاعة المحكمة المعدلة. أما الباقون فقد تم إجبارهم على الانحسار في غرفة مزدحمة لمتابعة المحاكمة على شاشة تلفزيونية عملاقة.

تعين علينا أن نسلم جميع الأجهزة الإلكترونية قبل دخول قاعة المحكمة، بما في ذلك الهواتف النقالة وآلات التسجيل. للترهين هاتفياً خلال المحاكمة، كنا نضطر للخروج مبرزين بطاقتنا المرقمة فيما كان أحد الجنود يفتش حزمة الأكياس البلاستيكية بجهاز إلكتروني، ثم نتوجه، إذا سمح الوقت، إلى إحدى النوافذ لإيصال رسالة هاتفية. كان الجنود يرافقوننا إلى دورات المياه في فترات الاستراحة ويفتشوننا بقضبان الإلكترونيات قبل تمكيننا من العودة إلى داخل قاعة المحكمة. كلاب الكي - 9 أيضاً تولت تفتيش حقائب الأقلام، الدفاتر، والبطاريات. تكرر هذا كلما توقفت المحاكمة للاستراحة خلال الجلسة التي دامت أربع ساعات، وكلما خرجنا من القاعة ودخلنا إليها.

كانت محاكمة سيفيتس العسكرية مهمة لأنها شكلت فرصتنا الأولى لسماع روايات تفصيلية لما حدث في أبو غريب من شخص ذي علاقة مباشرة. صحيح أن بعض اعترافات سيفيتس أمام المحققين العسكريين كانت قد نُشرت على الملأ، غير أننا لم نكن نعرف سوى أجزاء من مجمل القصة.

من المؤكد أن سيفيتس كان متهماً بإساءة معاملة المعتقلين غير أن دوره في الفضيحة التي تمخضت عن توجيه الاتهامات إلى سبعة من عناصر فوج الشرطة العسكرية الـ 372 الآتي من ماريلاند لم يكن معروفاً بدقة. لم يكن سيفيتس، وهو ابن الأربعة والعشرين ربيعاً، عنصر شرطة عسكرية مسؤولاً عن حراسة معتقلين؛ كان ميكانيكياً. وحسب شهادته، كان يقتل الوقت في إحدى غرف الاستراحة بالسجن يوم 8 تشرين الثاني/نوفمبر 2003، حين طلب منه عسكري مناوب آخر هو الرقيب إيفان إل. فريدريك، أن يتبعه إلى قسم الزنانات حيث كان الحرس يتعاملون مع معتقلين متورطين في أحد حوادث الشغب في قطاع آخر من السجن. قام فريدريك بسؤال سيفيتس عما إذا كان راغباً في مرافقة أحد المعتقلين إلى جناح آخر، فوافق الأخير. وفيما كان يقنطد المعتقل المقلنس ولكن دون التعرض للتجريد من ملابسه ممسكاً إياه من ذارعه، كما قال سيفيتس، دار منعطفاً ففوجئ بكومة من المعتقلين على الأرض.

رأى السجناء العراة مكومين على شكل هرم - منظر جرى نشره على نطاق واسع عبر صور التُّقت في تلك الليلة. رأى ضابط الشرطة العسكرية من الوحدة وهم يدوسون أصابع أيدي وأرجل كومة من المعتقلين، يجردونهم من بدلاتهم الرياضية ذات اللونين الأزرق والبرتقالي وملابسهم المدنية، ويجبرونهم على محاكاة تبادل ممارسة الجنس فيما بينهم. كذلك قام الجنود بضرب اثنين من السجناء - كان ضرب أحدهما شديداً إلى درجة أنه غاب عن الوعي. أفاد سيفيتس أنه غادر المكان حين تم إجبار السجناء على الاستمناة. تكرر انهياره في أثناء الإدلاء بالشهادة أمام المحكمة. كان يقول: "ليتني أستطيع الاعتذار من

الشعب العراقي ومن أولئك المعتقلين. لقد خذلت الجميع. كان من واجبي أن احمي أولئك المعتقلين في تلك الليلة. يتعين على المرء أن يقف في صف ما هو صحيح. لا تستطيع أن تمكن الناس من إساءة معاملة الناس بتلك الطريقة. كان ذلك خطأ. كان ينبغي ألا يحصل. "القاضي العسكري العقيد جيمس بوهل حكم على سيفيتس بسنة سجن وبالطرد من الجيش بموجب صفقة مع الادعاء قضت بعدم السجن لمدة أطول. وافق سيفيتس، بالمقابل، على الشهادة ضد الجنود الآخرين.

بعد المحاكمة العسكرية اتصلتُ بسائقينا الذين كانوا ينتظرون عند آخر الشارع تجنباً لخطر السيارات المفخخة في الأمكنة القريبة من نقطة تفتيش المنطقة الخضراء. ما إن ظهرت السيارتان (واحدة لي وأخرى للحارس المدجج بالسلاح) على بعد بضع دقائق من المنطقة الخضراء، مشيت مسافة النصف ميل إلى حاجز الأسوار الخرسانية العالية والأسلاك الشائكة الفاصل بين الأخضر والأحمر. كمنتُ خلف سور خرساني إلى أن رأيت السيارة ثم اندفعت بأقصى سرعة ممكنة نحوها.

خلال زيارتي الأولى للعراق في كانون الثاني/يناير 2003 كانت المنطقة الخضراء أقل إثارة للفرح بما لا يقاس. قبل محاكمة سيفيتس بأربعة أشهر. في كانون الثاني/يناير كنت مع فرقة مهندسي الجيش التي كانت مسؤولة عن أعمال إعادة الإعمار المكثفة الرامية إلى استعادة الخدمات العامة بعد الحرب وإصلاح البنية التحتية العراقية المشلولة. كان مقر عمليات الفرقة في المنطقة الخضراء، حيث أقمت حصاراً خلال رحلتي التي دامت أربعة أيام. كنت أتناول وجبات الطعام مع الجنود والمتعاقدين في مطعم القصر الجمهوري، نواة حكومة الاحتلال الأمريكية. كان صدام قد حكم على خصومه في إحدى غرف القصر، متربهاً على عرش تحت لوحة جدارية كبيرة لصاروخ. في كانون الثاني/يناير 2004 كان العرش قد نُقل من مكانه وكانت الغرفة قد حُولت إلى مهجع كبير مملوء بالأسرة

لنوم الجنود. في ساعات الصباح كنت أجري على امتداد شوارع المنطقة الخضراء؛ وقد التقطت صوراً للغروب من على شرفة قصر أصغر كنت أنام فيه. في الليل كنت أنظف أسناني بالفرشاة في غرفة حمام مزينة بالرخام والذهب كنت أتقاسمها مع ست نساء أخريات.

كانت الفرقة مسؤولة عن إدارة عقد إعادة بناء البنية التحتية النفطية في العراق وتوفير الوقود اللازم. كانت الفرقة قد تعاقدت مع الكي. بي. آر. على تأمين ذلك في آذار/مارس 2003 دون عرض الأمر للمناقصة. ما لبث مراقبو الحسابات الرسميون وأعضاء الكونغرس أن اتهموا الكي. بي. آر. بدفع أسعار باهظة للوقود الذي كانت تستورده من الكويت إلى العراق. وعلى الرغم من أن الفرقة كانت قد نصحت الشركة بشراء الوقود من الكويت فإن الأخيرة نالت القسط الأكبر من النقد. لم يقف فلورز، وهو خريج معهد فيرجينيا العسكري وحامل وسامي المظلات ووحدات الاقتحام النخبوية، مكتوف اليدين أمام الانتقاد. أقر الرجل على مسمعي بأن الشركة كانت، بالطبع، قد دفعت مبالغ كبيرة ثمناً للوقود، رداً على الاتهامات الزاعمة بأن الشركة حملت الحكومة مبلغاً إضافياً وصل إلى 61 مليوناً من الدولارات جراء شراء الوقود من الكويت بدلاً من بلدان أخرى. أفاد فلورز بأن الكويت كانت المكان الوحيد الذي تستطيع شركة الكي. بي. آر. ابتياع الوقود منه، مزيحاً جانباً المقارنات مع أسعار الوقود في تركيا وسورية بوصفها فرضيات مبتدئين أو أعرار. كانت وزارة الخارجية قد حظرت على الجيش شراء الوقود من سورية، وكان من شأن نقله من تركيا في الشمال أن يكون باهظ التكاليف، قال فلورز.

بوصفه رئيس مهندسي الجيش، كان فلورز بالغ الجدية إزاء ضرورة تمكين الشعب العراقي من الحصول على ما هو بحاجة إليه من وقود. كانت تلك خطة تكتيكية للحيلولة دون إحداث الشغب والفوضى في الشوارع. وما العيب في أن

تكون الكلفة أعلى قليلاً؟ قال لي فلورز مباشرة. ورغم كونه جنراً في الجيش، لم يكن فلورز بعيداً عن متناول الصحافة، ربما لأنه متخصص بأعمال إعادة الإعمار، لا بقتال الشوارع، مع أن مهندسيه كانوا، بالتأكيد، معرضين للخطر، المتهدد لأي جندي في الجيش، نفسه.

آنذاك كان الحظ قد حالفني. جميعاً كنا محظوظين، أدرك الآن. فخلال تلك الرحلة تجولت في أرجاء العراق حاملة على صدر سترتي العسكرية المضادة للرصاص عبارة "صحافة". ثمة صورة أخرى لي التقطها ضابط شؤون عامة خلال تلك الرحلة الوجيزة: شال والدي الأزرق ملفوف حول رقبتني. حزام ذقن خوذتي المموهة منحرف. وليست نظاراتي الشمسية من طراز جاكوي أو، وهي من النوع البلاستيكي الرخيص المتوفر لدى الباعة المتجولين في شوارع مدينة نيويورك. مبتسمة أنا في الصورة. أمثل دور مراسلة حربية، ولا أوحى بأي إحساس بالخوف لأن أحداً ممن هم حولي لا يبدي أي قدر من القلق.

مازلنا في حالة حرب، ولكننا، يا صاحبي، نحقق تقدماً. تلك كانت الرسالة التي يبثها الجيش. وذلك أيضاً هو الواقع الذي رأيته وكنت متلهفة للكتابة عنه. رأيت فرقة مهندسي الجيش عاكفةً على إصلاح محطات الطاقة الفرعية في العراق، وكتبت أن الإصلاحات كانت جارية على قدم وساق. تحدثت تفصيلاً عن سبب كون الكهرباء في بغداد بعد الحرب أقل مما كان قبلها: كان الأمريكيون قد باشروا في إعادة توزيعه بقدر أكبر من العدل. كان ذلك يعني قدراً أكبر من الطاقة للجنوب العراقي على حساب العاصمة الموجودة في الوسط. في الوقت نفسه كتبت عن الأخطار الماثلة بالنسبة إلى العاملين في إعادة بناء محطات الطاقة. كثيرون لم يعودوا قادرين على السفر الآمن من العاصمة إلى المشروعات ذهاباً وإياباً، فاضطروا لإقامة مخيمات صغيرة عند مواقع العمل. شكل هذا أحد أمثلة الوضع الأمني المتدهور الذي كان كل من الجيش والإعلام بادئين للتوفيق فقط باستيعابه. يفترض الناس أن الصحفيين لا يهتمون إلا بالأخبار السلبية، أخبار القتل والتدمير، وثمة بعض الحقيقة

في هذا الافتراض بصراحة. فنحن نميل أكثر إلى ما هو بشع مقارنة بما هو بديع لأن تأثير الوجه الشنيع للطبيعة الإنسانية يبدو أكثر أهمية بمعنى من المعاني. أن يكون الناس في مواجهة الموت ينطوي على ما هو أهم مقارنة بكونهم ينعمون بالحياة.

مع مرور الأشهر، وتيرة إعادة البناء تباطأت كثيراً إلى درجة أنني وجدت، حين عدت، بعد ما لا يزيد عن أربعة أشهر في أيار/مايو، أن قياس التقدم بات صعباً. بدا العراق، بسبب التمرد والهجمات المتكررة على البنية التحتية، محاصراً، حيث الجنود العراقيون والأمريكيون منتشرون على نقاط التفتيش في طول البلاد وعرضها، وحيث شبكة كثيفة من الحواجز، الأسلاك الشائكة، المباني المنسوفة، وأبراج المراقبة.

كانت إحدى الشكاوى المطردة المتكررة على مسامعي من أفواه العراقيين حين عدت في أيار/مايو 2004 متمثلة بأنهم لم يكونوا قد توقعوا أن تبقى حيواتهم مهددة بظاهرتي العنف واللا يقين كل هذه المدة الطويلة بعد الحرب. كان الأمريكيون قد وعدوهم بحياة أفضل، غير أن العراقيين كانوا يشكّون من أن انقضاء الأشهر على الغزو لم يُضفِ أي معنى على هذه الفكرة النظرية، فكرة الديمقراطية، مع بقاء أكوام القمامة التي تنبعث منها الروائح الكريهة أمام البيوت، مع بقائهم خائفين من السيارات المفخخة وهجمات المورتار. صحيح أن الصراع لم يجهز على الأمل الذي أحيته الإطاحة بصدام في قلوب كثيرة، وكثيرة جداً، ولكنه جعل التمسك به والحفاظ عليه أكثر صعوبة.

بعد أسبوع واحد من وصولي انهار سقف الحوض في الحمام وتدفق الماء علي. جاء احد عمال الصيانة في بدلة عمل زرقاء وسخنة وأوقف تسرب الماء ولكنه خلف وراءه آثار حذاء سوداء وشظايا ملاط السقف في حوض الحمام. وفيما كنت عاكفة على فرك الحوض وتنظيفه راکعة على ركبتي في وقت متأخر من الليل، تساءلت عما كان "عامل الصيانة" هذا يفعله قبل الحرب. تساءلت عما إذا كانت أسرته على قيد الحياة لتستقبله لدى عودته تلك الليلة. تساءلت عن

عدد نقاط التفتيش التي كان سيتعين عليه اجتيازها. تساءلت عما إذا كان قد بدأ يشعر بأنه بات حراً. أمضيت باقي أيامي في العراق وأنا أحاول أن اكتشف، أحاول أن أشاطر العراقيين شعورهم الحقيقي، أحاول الوقوف على مدى التغيير الحاصل في حياتهم. هل أصبحت أفضل أم أسوأ. أحياناً كانوا يسألونني عما إذا كنت مع الحرب أم ضدها. كنت أقول لهم: لا فرق! أنا هنا لأن حرباً وقعت. لم أكن في العراق لأنحاز إلى هذه الجهة أو تلك. جئت إلى هنا لأصفي.



ستكون قد رحلت في غضون ثلاثة أيام، وأنا على متن طائرة قادمة من كنتيكت إلى بلتيمور لحاجتي الماسة إلى رؤيتها قبل السفر. علاوة، كان بوسعي ري النباتات ورمي القمامة في أثناء بقائها مشغولة بالفيديو وبطاقات السفر الجوي.

في الأسبوع الأخير من حياة أبي، واطبتُ أمي على متابعة برنامجها التعليمي، على الإيحاء بأن الأمور طبيعية، بصراحة أذهلتني. لم أستطع أن أفهم لماذا لم تترك عملها دون أي تردد للملازمة زوجها المحتضر. ومع أنني لم أكن أتوقع أن أختي ستموت، فقد تركت كل شيء لقضاء الأيام القليلة الأخيرة معها. لا لمنحها الراحة بل لإكساب نفسي شيئاً أتذكره، انزلاقة ذكرى أبرزها لضوء مستقبل لا يعرف معنى اليقين، مستقبل لا أستطيع تصوره بدونها.

جاكي وأنا أمضينا السنوات الثماني عشرة الأولى من حياتنا ونحن على مسافة أربع أقدام إحدانا عن الأخرى، حيث كان سريرانا التوأمين يسندان جداري غرفة صغيرة جداً، ووردية جداً. في مرحلة الحضانة اختلقنا طقساً ليلياً محدثاً ظل معنا إلى سنوات المراهقة. قبيل الغرق في

النوم كانت إحدانا تقول: "أحبك"، ويتعين على الأخرى أن ترد بالمثل. لم تكن كلمة "أيضاً" مقبولة، لأن عبارة "أحبك أيضاً" كانت توحى بنوع من الاستدراك، بحب خارج سياق الزمن. ومع تسلقنا سلم الزمن، تحول الطقس إلى لعبة. في الظلام كنت أهمس بحرف "ت" صامت ولساني شبه ملتصق بسقف فمي، فتصرخ جاكى: "سمعت ذلك! أعيدي الكرة!" في الكلية، ونحن بعيدتان إحدانا عن الأخرى وشديدتا الحرص على حماية قصة حبنا. لأنها بدت كذلك أكثر الأحيان. قلبنا اللعبة إلى رمز أو شيفرة. فعبارة "أنا أيضاً" باتت تعني "أحبك، أنت عالمي، إياك أن تتركيني." كان المرء يستطيع أن يقولها في مهجعه، في مكتب الجريدة الطالبية، مع حشد الأصدقاء في حفلة، دون أن يتمكن أحد من أن يعرف المخاطب أو المقصود.

فترات طويلة من الزمن أمضيتها من قبل بعيدة عن أختي. فصل الصيف الذي قضيته في إنجلترا، سنوات الدراسة العليا بعد التخرج عشنا على شاطئتين متعاكسين. في الحقيقة أصبحنا، منذ تخرجنا في المدرسة الثانوية، نعيش على مسافة رحلة جوية إحدانا عن الأخرى، وكثيراً ما كنا نقوم بهذه الرحلة. إلا أن هذه الوظيفة أو المهمة في العراق كانت مختلفة. لم تكن مطمئنتين إلى أسلوب التواصل أو تيرته. تساءل زوجي عن مدى قدرتي على الاستغناء عن "جرعة جاكى" الصباحية. قلت له "لن أموت"، فيما راح هو يذكرني بلطف بأننا، جاكى وأنا، كنا نتحدث مع بعضنا كل يوم في أثناء شهر العسل. مؤكداً "نعم كل يوم".

لم نكن نعرف حتى المدة التي كانت ستغيبها، وعدم وجود موعد محدد يعاش انتظاراً له كان باعثاً على الجنون. غير أن جاكى مقتنعة بأنها ستكون معنا مع حلول نهاية الصيف، فكتبت لها، وأنا على متن الطائرة المتوجهة إلى بلتيمور، خمس عشرة رسالة، لتفتح واحدة منها كل يوم أحد على

امتداد الأشهر الثلاثة التالية، مع ثلاث رسائل إضافية لعلاج لحظات الحنين الشديد إلى الوطن.

أعطيتها الرسائل في الليلة الأخيرة التي أمضيها معاً. كانت قد استلمت تجهيزاتها الوقائية ذلك الصباح. نظارات، قناع، خوذة وسترة مضادة للرصاص عليها كلمة "صحافة" بأحرف كبيرة. جعلتني أجرب كل الأشياء أيضاً، وتعثرت في شقتها المكيفة ساعية إلى التنفس والمشى تحت الوطأة الحارة والثقيلة للتجهيزات وما كانت تعنيه. أعدت إليها كل الأشياء وأنا أقول: "كيف ستفعلين هذا في الصحراء؟ أو وأنت هاربة من أحدهم؟"

هزت كتفيتها، وهي ترتدي النظارات والقناع من جديد. حاولت اصطناع الدماعة والتظاهر كما لو كنت أعرف هذه المراسلة الحربية الواقفة أمامي، وكأنني لم أعرف معنى الخوف.

"أنا أيضاً" تسلل صوت مخنوق من خلف القناع. بدت العبارة أشبه بصرخة أخرسها الضباط، أشبه بصوت شخص يناديني من مكان بعيد، بعيد جداً.

